تقـديم

تربطنى بالصومال مشاعر خاصة؛ فهى أول بلد أفريقى أزوره، وكنت قد أمضيت سنوات وسنوات أقرأ وأدرس أحوال أفريقيا البعيدة تمامًا عن الواقع. كانت زيارتى الأولى لحضور مؤتمر القمة الأفريقى الذى عقد بالعاصمة الصومالية «مقديشيو» عام ١٩٧٤ . كان الشعب الصومالى حين ذاك فى حالة زهو وفخر بدولته الحديثة، فرغم أنه نال استقلاله عام ١٩٦٠ إلا أنه لم يشعر بهذا الزهو إلا بعد ثورة الجيش بقيادة سياد برى عام ١٩٦٩، وكان من ضمن أهدافها توحيد أشطار البلاد وإعادة الأوجادين التى تحتلها أثيوبيا إلى التراب الصومالى. غمرتنى فرحتهم وآمالهم وطموحاتهم بحالة من السعادة لم أشعر بمثلها إلا يوم أن أعلنت مصر الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، وكنت وقتها حالمة أيضًا بفكرة الوحدة العربية.

فى المؤتمر وُزِّع علينا كتاب عن العلاقات الصومالية الأثيوبية، وبعد سويعات قليلة قبل أن نتمكن من تصفحه طُلب منا استرجاعه لأن فيه عدة سطور لم يستسغها الوفد الأثيوبى فطلب سحبه، واستجابت الحكومة الصومالية سريعًا للطلب، وقتها استغربت إذا كان النظام الصومالى الواعد لم يستطع أن يراجع الوفد الأثيوبى، فكيف سيواجه الحرب مع أثيوبيا لاسترجاع الأوجادين؟

تعرفت فى هذه الزيارة على عدد من شباب الصومال الذى كان واعدا وممتلئًا بالحماس والوطنية الحالم بتوحيد تراب بلده، منهم من أصبحوا سياسيين شرفاء،

ومنهم من تحولوا إلى أمراء حرب، ومنهم من أصبحوا من أشهر أدباء أفريقيا اليوم مثل الروائى «نور الدين فرح» الفائز بجائزة نوستادز التى تعتبر فى مجال الأدب الجائزة الدولية الأرفع مستوى بعد جائزة نوبل. ونور الدين فرح يعد الآن من أكبر كتاب الرواية الأفريقية، وواحدا من أوسع المؤلفين الأفريقيين انتشاراً وقراءة، وترجمت أعماله إلى عشر لغات.

أمضينا ليالى طوالا فى مناقشات شبابية عن التحرر وتكوين الدولة الوطنية والديمقراطية وحكم العسكر ومستقبل الصومال وحرية الفرد. كان الجميع مجمعا على أن الصومال ـ البلد العربى الأصيل الذى دخل منه الإسلام إلى القارة الأفريقية، والذى قاوم جحافل الاستعمار منذ القرن الخامس عشر عندما جاءت البرتغال إلى شواطئه، ثم حركات التحرر الوطنية فى القرن التاسع عشر والعشرين ـ لا بد أن يعود إلى سابق ماضيه، وان يلملم أشتاته الخمسة.

أحببت الصومال وأحببت أهله الطيبين وتمنيت أن تتحقق أحلامهم فى توحيد البلد وتحقيق التنمية والسيادة على أرضه. . تابعت مسيرته السياسية وتابعت شخوصه التى عرفتها، صدمت من سلوك بعضها، والتمست العذر للبعض الآخر، تعاطفت مع حروبه، وظلمت رئيسه سياد برى، فلم أكن وقتذاك أدرك حجم الضغوط الواقعة عليه، أخطأ برى، ولكن أخطاءه لم تكن تؤدى بالبلاد إلى هذا الضياع الذى عليه الآن، فالتدخلات الأجنبية، والحروب التى خاضها فرضت عليه، لم يشهدها بلد أفريقى حديث.

والشعب الصومالى شعب مضياف يختلف عن جيرانه فى الخُلق والشكل، هو أقرب إلى الملامح والصفات العربية منها إلى الزنجية، كريم متسامح قليل الغضب ينصت للحديث ويتفهمه، ولكنه صلب عنيد لا يغريه مال، يذكر له أن الأمم المتحدة عندما رصدت مبلغ ٥٠ ألف دولار لمن يرشد عن الزعيم الوطنى «فرح عيديد» الذى أطاح بسياد برى وأذل القوات الأمريكية عندما تدخلت فى بلده، رصدت هذا المبلغ لمن يرشد أو يقبض عليه حيّا أو ميتًا، ورغم ذلك، لا جبروت

القوات المسلحة الأمريكية ولا إغراء المال الوفير جعل صوماليا واحدا يرشد عن مكان عيديد. بل مع الحصار الذى كان مفروضا عليه فقد كان الصحفيون يجدونه بسهوله ويجرون معه الأحاديث، وكانت خطبه وأقواله تتناقل فى الشوارع وبين الجماهير، وعجزت مخابرات الولايات المتحدة والأمم المتحدة عن ملاحقته بفضل حماية شعبه له.

وطوال إعدادى لهذه الدراسة السريعة المختصرة عن الصومال كان يلح علىَّ المثل الأفريقى الذى يقول: «عندما تتصارع الفيلة فإن الشعب هو الذى يئن»، وأفيال العالم تتصارع على أرض الصومال، كان الله فى عون شعبه.

عايدة العزب موسى

* * *